في درسٍ للتاريخ... لم يفهمه سلاطين العثمانيين

السعوديون بنوا الوطن في قلوبهم قبل حدودهم السياسية

لـم يكن يخطـر على بال سـلاطين العثمانيين أن ثمة رجـالاً من صحراء الجزيـرة العربية يحملون في قلوبهم إيمانًا بوطنهم العربي والإسلامي، ويسعون إلى استقلاله من براثن الترك الذين جثموا على صدورهم فأورثوهم الفقر والتأخّر قرونًا من الزمن، في الوقت الذي تركت فيه سـلطة آل عثمـان في الأقاليـم العربية المليئة بالثـروات مثل العراق والشـام ومصر، أمـا الجزيرة العربية فأهملوها لعقود طويلة وتركوها لولاة مجهولين أكثروا من الظلم ضد أهلها وتركوهم عرضةً للتأخر.

> **شعر سلاطين الترك بالخطر لإدراكهم أن الإمام محمد بن سعود يحمل مشروع دولةٍ إصلاحية.**

مـارس سـلاطين العثمانيين سياسـةً اسـتعلائية تجاه الجزيـرة العربيـة، خاصة نجد والحجاز، ومع قيام الدولة السـعودية الأولى في الدرعيـة بقيادة الإمام محمد بن سـعود (1744)، وحملِهِ رايةَ الإصلاح والنهضة، شـعر العثمانيون أن ما يحدث ليس مجرد حـراك قبلي داخلي، بل مشـروع دولة يحمل في طياته نهضة سياسـية وإصلاحًا فكريًّا.

وعلى الرغم من ذلك استهان العثمانيون بالدولة السـعودية الأولى بدايـةً، وتوهموا أن أي قـوة سياسـية داخليـة تسـتطيع بقليـل من الأسـلحة والدعم القضاء عليها، غير أن التاريخ أثبت خطـأ اعتقادهم وتقديرهـم، إذ إن جيوش الدولة السعودية الأولى تمكنّت من صد العدوان التركي الذي تكرر من قبل قوى عدة بالوكالة، حتى اسـتطاعت الدولـة السـعودية توحيـد أراضٍ شاسـعة من الجزيرة العربية مما حرص الأتراك على بقاء نفوذهم فيها.

اصطدمت الدولة السعودية الأولى بالدولة العثمانية بنحوٍ مباشر في العراق، الإقليم العربي الأصيل الذي يملك حدودًا مباشـرة مع الجزيرة العربية، ولم يكن السعوديون يُعِدُّون بلاد الرافدين إلا إقليمًـا عربيًّا يقع تحت الاحتلال العثماني مثله مثل الحجاز، وهنا كان الحلم السـعودي بتحرير هذا الإقليم من احتلال الترك.

بعد أن تولى الإمام عبد العزيز بن محمد بن سـعود الدولة السـعودية الأولى إثر وفاة والده الإمام المؤسِّـس (رحمه الله) سـنة (1765): اسـتأنف بناء الدولة ومدّ نفوذه الداخلي حتى وحَّد نجد كاملةً، وتمكّن من توحيد شرق الجزيرة العربية.

ويقول صالح الشـورة في كتابه "موقف العراق العثماني من الدولة السـعودية الأولى": "لقد كان موقـف العثمانيين من الدولة السـعودية متغيرًا بتغير الظروف والرسـائل التي تصلها"، فقد رفضت في بداية الأمر الالتفات إلى ما يحدث في وسـط الجزيرة، لكن مع اسـتمرار التقدم السعودي وجدت الأسـتانة نفسها تخوض المعركة تلو الأخرى ضد دولة فتية في الدرعية دون أن تحقق انتصارًا يذكر عليها.

صعدت أزمـة العثمانييـن بقيـام الدولة السـعودية الأولى إلـى ذروتها، بعد أن اسـترَدَّ السـعوديون الأحسـاء، وعلى الرغم من أنها لم تكن تحت سـلطة العثمانيين إلا أن الأمر بدا مخيفًا بالنسـبة إلى الأتراك، فمع وصول السـعوديين إلى موانئ الخليج العربي، اسـتثار الأمر خصومهم، خاصـةً في العراق، وما لبث أن بـدأ تحريض القبائل والبادية ضد الدولة السـعودية، ذلك الأمر دفع السـعوديين إلى شـن حملات عسـكرية خاطفة على جنوب العـراق، ردًا على مـا كان يقوم به ولاة العثمانييـن من تحريض على أتباع الدولة والاعتداء عليهم وعلى قوافلهم المارة في أراضيهم.

اقتنـع العثمانيون أن التحرشـات القبلية والعمليات غير العسـكرية الكبيـرة لن تؤثر في السعوديين، ففرروا شنّ الحملات المنظمة، وجاءت ابتداءً بحملة زعيم المنتفق في العراق ثويني بن عبد الله التي وُجِّهت إلى عاصمة الدولة السـعودية الأولى الدرعية، ووصلت إلى إحدى أهم المناطق السعودية (القصيم) عام (1786)، لكن البسـالة السعودية أفشلت الحملة العثمانية واندحرت، وهذا مـا جعل السـعوديين يعتبـرون أن الأمر لن يقـف عند هذا الحـد، وأنهم مسـتهدفون من قبل العثمانييـن عن طريق ولاة العراق وقادته.

بعد أن جاء العثماني سـليم الثالث إلى السلطنة (1798-1807) كانت الدولة السعودية الملف الأكثـر إرهاقًا له في الجزيرة العربية، إذ على رغم محاولاته ومحاولات من قبله إنهاءها عن طريق ولاة العـراق، لم يكن الأمر مجديًا ولا ناجحًا بالنسـبة لهم، خصوصًا في ظـل تباطوء ونلكوء ولاة العراق، يقابله الإيمان السـعودي بالوحدة والحق الشـرعي في الوطن ضد الاحتلال، فكان الفشل العثماني أمام القوة السعودية يتراكم مع كل مواجهة تجري بين الطرفين.

وتؤكـد الروايات التاريخية، أن ثلاثـةً من ولايات العثمانيين العربية المُحتلَّة، إما شـاركت أو صدرت لها الأوامر بالقضاء على الدولة السـعودية الأولى: العراق، الشام التي رفض واليها التورط في قتال السـعوديين خوفًا من استفزازهم وبالتالي تمددهم في الشام، ومصر عن طريق والِيهم محمد علي باشـا، والأخير بدوره أرسـل ولديه طوسـون وإبراهيم باشـا، ثم اضطر للذهاب بنفسه لقيادة الحملات، ولهذا كانت الدولة السـعودية الأولى مصدر قلق أهان السلطنة العثمانية وسلطانها على رغم ما تمتلكه من قوةٍ وإمكانات وفكر إمبراطوري له مئات السنين أمام قوةٍ ناشئة مقارنةً بدولتهم المسـتعمرة، لم يستطع العثمانيون القضاء على مصدر قلقهم في الجزيرة العربية إلا بعد أن قرروا الرمي بكل قواهـم للوصول إلى الدرعية عاصمة الدولة السـعودية، وحصارها وقصفها والمفاوضة على قتل النسـاء والأطفال، وهو ما دفع آخر أئمتها عبد الله بن سعود للتسليم والخروج حفاظًا على سلامة الأهالي، الذين غدر بهم العثمانيون.

اقتنع العثمانيون بأن ليس لهم قِبَلاً بالدخول في حربٍ صريحة مع الدولة السـعودية الأولى، لذا لجأوا إلى الإرهاب والخيانة والغدر، معتقدين أنهم يستطيعون أن يكسروا السعوديين، الذين بنوا وطنًا في صدورهم قبل أن يضعوا له حدودًا سياسية.

ففشـل العثمانيون أمام السـعوديين في الأحسـاء عن طريق ولائهم في العراق وقادتهم العسـكريين فيها، وانتصارات الإمام سـعود بن عبدالعزيز عليهم، وطلب الكيخيا علي المُدَلّ الصلح مع السعوديين، يُثبت أن السـعوديين تعاملوا بنِّديةٍ حتى مع أعدائهم، بينما تعامل العثمانيون بكل غدرٍ وخيانة، فما أن صالحوا السعوديين في الأحساء، حتى تحركوا من جهات أُخَر لتحقيق هدفهم في القضاء على السعوديين.

> **أول عملية إرهاب عثماني ضد السعوديين كانت باغتيال الإمام عبدالعزيز وهو يصلي في مسجد الطريف بالدرعية عام (1803).**

ومن أوائل أشـكال الغـدر العثماني ضد الدولة السعودية الأولى: أن أول حالة اغتيال جرت في الدرعية ضد السعوديين؛ كانت باغتيال الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سـعود (رحمه الله) عام (1803) وهو يصلي في مسـجد الطريف بالدرعية عن طريـق مبعـوث من العـراق بعد الفشـل العثمانـي في الأحسـاء، بهدف بـث حالة الرعب والإرهاب بين السـعوديين، انتقامًـا للإهانة التي تعرض لها العثمانيون من جيش السعوديين.

المراجع:

1) حسين بن غنام، روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام (الرياض: دار الثلوثية، 2010).

2) عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق: عبدالرحمن آل الشيخ، ط 4 (الرياض: وزارة المعارف، 1971).

3) عبَّاس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين (بغداد: مطبعة بغداد، 1935).

4) عبدالرحيم عبدالرحمن، الدولة السـعودية الأولـى، ط5 (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، 1987).

5) محمد الخضيري، الدولة السـعودية الأولى والدولة العثمانية (الرياض: الدار الصولتية للتربية، 2000).

6) أحمد الطراونة وصالح الشورة، موقف العراق العثماني من الدولة السعودية الأولى 1745-1818م، مجلة العلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية بغزة، السنة 25، ع. 2 (2017).